يوميات الحرب

صيفٌ بين المطر والرّعد

كيرستن شايد*

«قال صديق لورْ إنّ تمارين عرض فيروز تمامًا»

السبت ٢٠٠٦/٧/١٦

في الطريق قبل يومَيْن إلى مطعم «أنتي سلوى» لتناول الغداء، صادفْنا، أنا ولورْ، صديقَها «لي» الذي يعلِّم العربية. قال إنّه يَمْلك بطاقات لحضور افتتاح مهرجانات بعلبك تلك الليلة، لكنّ العرض لن يتمّ لسوء الحظ. وكان قد سَمِعَ أنّ الپروڤا ليلةَ الأربعاء كانت، بكلمة واحدة، «تمامْ.»

أثناء الغداء سألتني لورْ عن خططي وتوقُّعاتي تحدّثتُ عن نظريتي في «ضرورة البقاء مع المكان،» لكنّني أقررتُ بأنّ ذلك محضُ تنظير تحدّثْنا عن الفارق بين الحرب الأهلية والحرب بين الدُّوَل، إلاّ أنّني كنتُ أعتقد أنّنا لسنا على حافة حربٍ حقيقية، وإنّما هي بضعةُ أيّامٍ من المعارك من أجل تحسين شروط التفاوض لا غير عقب الغداء ذهبنا إلى «سميث» لشراء الحاجيّات بعدما سَرَتْ شائعةٌ بأنّ المخازن ستُقفل. لم نجد حليبًا ولا خبزًا، ولم نَعْثر من البندورة المهروسة إلاّ على علبتيْن. قهقهْنا ونحن نتساءل عمّا سنشتريه: شوكولا، نبيذ، معكرونة، بيض؟ ثم جاءت غالية مع غسّان، فقبّلتني ووبّختني لأنّني «عملتُ من الحبّة قبّة» حين أَخَذْتُ أُخزِّن ـ وأيُّ تخزين! غير أنّني رأيتُها لاحقًا أمام قسم الألبان تَسْأل غسّان: «شو منشتري، لبن، لبنة، بيض؟» ابتسمتُ. كانت لور تنتظرني كي أُنهي مشترياتي. قُدْتُها بالسيارة إلى بيتها، وتواعدْنا على اللقاء قريبًا ثم اكتشفتُ أنّني نسيتُ أن أشتري ماءً!

* ـ أستاذة الأنثروبولوجيا في الجامعة الأميركية في بيروت، وعضو في «حملة مقاطعة داعمي إسرائيل،» و«حملة المقاومة المدنية »

والصفحات التالية جزء من يوميات أطول

الجمعة صباحًا ذهبْنا إلى «فقرا،» إلى الشقّة التي كنّا قد استأجرناها في أيّار. الخميس، في بيروت، كانت سارية وناي قد أمضتا اليومَ بطوله تتفرّجان على التلفزيون ـ مَرَض حياةِ سكّان الشقق سَحَبْناهما، أنا وسماح، لنتمشّى جميعًا على الجسر الحجري، وقلتُ مازحةً إنّه قد يكون الجسرَ الوحيدَ الذي لا يتهدّده القصفُ الإسرائيلي في لبنان لاحقًا تعشّيْنا في مطعم «عند شاكِرْ.» كان التلفزيون شغّالاً، وسمعنا أنّ ثمة قصفًا ومناوشاتٍ في الجنوب. جاءنا النادلُ بالطعام، وسمعناه يسأل زميلَه وراءه: «شو؟ مين فَوَّتْ غولْ هلّق؟» (مَنْ أَحْرز هدفًا؟). كانت البنتان تَلْهُوان بالكرز، فتحوّلانِهِ إلى ما يُشْبه الدم.

حين خرجْنا من عشائنا الباهظ طلبتْ سارية وناي أن نَسْمحَ لهما بمشاهدة برنامجهما المفضّل على قناة ديزني. لكنّ السيد نصر اللّه كان على الشاشة في حديثٍ مسجّل. أكثرُ ما يُثير في هذا الحديث رسالتُه إلى الإسرائيليين. قال إنّ استطلاعات الرأي عندكم تُظْهر أنّكم تَثِقون بي أكثرَ ممّا تثقون بأيٍّ من زعمائكم، إذن اسمعوا وَعُوا. ثم ردَّ على التهمة المصرية ـ السعودية بأنّ حزبَ اللّه مجموعةُ مغامرين، فأقرّ بذلك مضيفًا أنّنا كذلك منذ سنة ١٩٨٢ ولكنّنا لم نجلبْ لبلدنا وأمّتنا إلاّ النصرَ والكرامةَ والحرية. وفي خاتمةِ حديثه برهن السيد نصر اللّه عن الانتقال المذهل لمقاتلي حزبه من خانة «المغامرين» المزعومين إلى خانة «المحاربين» الحقيقيين حين أَعْلن: «الآن، وأنت تستمعون إليّ، هناك بارجةٌ حربيةٌ إسرائيلية في عرض البحر تحترق، وستَغْرق، ويَغرقُ مَنْ فيها » وهذا ما حصل فعلاً، وشوهدت البارجةُ تصارع النيرانَ. لا أَذْكر إنْ كنتُ أنا التي اتّصلتْ بـ «تيتا» أم العكس، لكنّنا كنّا سعيدتيْن ومتأثّرتيْن جدّاً بالنبإ الجديد.

إذ أجلس صبيحةَ ذلك السبت المضيء في مجمّع 3S Cottage، أحدِ أكثر مجمّعات «فقرا» رفاهيةً، أتذكّر حديثَ الصحفي رفيق نصر اللّه الساخر على قناة NBN. كان يتساءل: لِمَ يَأْبَهُ أهلُ ضاحيةِ بيروت الجنوبية بالمطار إنْ كانوا لا يستطيعون دفعَ تكاليفِ السفر؟ ولِمَ يهتمّون بالسيّاح وهم لا يأتون إلى الضاحية؟ ولِمَ يكترثون لِكلّ تلك الطرق والجسور والفنادق حين يُحْرَمون عمدًا، وطوال عقودٍ، من مشاريع «الازدهار» الوطني؟ قد لا يكون رفيق نصر اللّه قال ذلك كلَّه بتلك الحدّةِ والغضبِ والحسد، لكنّه كان بالتأكيد غيرَ مهتمٍّ البتةَ بالبنى التحتية شأنَ المعلّقين الآخرين الذين يَزْعقون بها صباحَ مساء. وفي حين كان بعضُ مَعارفي في فقرا يَنْدبون أوضاعَهم بسبب زوال الأمان والاستثمارات، رحتُ أفكّر أنّ الأغنياء هم أكثرُ المتضرّرين من هذه الحرب: فالفقراء في لبنان حُرِموا أصلاً، ومنذ دهرٍ، من أيِّ أمانٍ وازدهار.

أفكّر من جديد في عرض فيروز الذي كان يُفترض أن يكون «تمامْ» مثلَ التمارين. تمامْ؟ ماذا يعني هذا؟ ومن أين يأتي التمام؟

لقد طار العرضُ التمام، ومات ٩١ لبنانيّاً. وشعرتُ بأنّني أتفلسف حين توصّلتُ إلى أنّ الضحايا الواحد والتسعين الذين قَضَوْا حتى الآن لم يكونوا، ولم أكن أنا أيضًا، أحياء حقّاً، مثلما لم نكن في سلامٍ فعليّ طوال السنوات العشر الأخيرة. فما دُمْنا لا نتحكّم بأوضاعنا، فلا سلام ولا تمام، ولسنا أحياء بل **نستعير** حياتَنا من آخرين: من الناس الذين يتحكّمون بأوضاعنا، ومن الناس الذين يعانون فعلاً بسبب إهمالِنا لهم وتجنُّبنا إيّاهم.

صباح اليوم (السبت) تتّصل أمّي من كليفلاند، غير أنّ الخطّ ينقطع. تعاود الاتصالَ بعد عشر دقائق. نحن بخير، أقول لها، في الجبل الذي يبدو آمنًا، ولكنْ مَنْ يدري؟ يَصْعب أن نَطْلب من أحدٍ ألاّ يَقْلق حين نَجْهل ما سيَحْدث فعلاً، وحين يكون القلقُ هو دافعَه إلى فعلِ شيءٍ ما. أَطْلب من أمّي ألاّ تضيّع وقتَها في القلق عليّ، بل أن تُخْبر أصدقاءها [الأميركيين] الذين يستفسرون عن سلامتي بأنّ المشكلةَ مشكلتُهم لا مشكلتي: فلسنا نحنُ مَنْ خَلَقَ الصهاينةَ بل هم، وهم يَخْلقونهم كلَّ يوم بفضل تمويلِهم منطقَ إسرائيل التفوُّقي العنصري وإعطائه كلَّ المبرّراتِ «الأخلاقية».

الأحد ٢٠٠٦/٧/١٦

إنّه الفرح، الفرحُ المُطْلق لرؤيةِ سكّان الضاحية الجنوبية يبيعون الخضارَ وينظّفون محالّهم. الفرحُ، الفرح المُطْلق، لرؤيةِ حيفا تتعرّض للقصف. ٩ قتلى في صفوف الإسرائيليين، وقصفُ «مركزٍ حيويٍّ» في حيفا. الحرائق تُخْلي حيفا من سكّانها. الآن، كلُّ ما نُريده هو أن ينتفضَ الفلسطينيون ويقوموا بعملٍ جديدٍ ضدّ إسرائيل.

١٠:١٠ صباحًا، قناةُ «المنار» تعود إلى البثّ. الشاشة مغبّشة، والحوارُ باهت، لكنّ شعارَ المحطّة موجود، وشريطَ الأخبارِ الجديدة يتوالى تباعًا في أسفل الشاشة. المنار بخير. نحن بخير!

عائدة (أُمُّ سماح) تتّصل. كيف سيَضْمنون أن يكون سهيل في أمان؟ سريرُه قرب الواجهة الزجاجية. ماذا سيَحْدث إنْ قَصَفَ الإسرائيليون قصرَ نبيه برّي المواجه؟ ثم إنّ على سهيل أن يذهب إلى المستشفى لغسل كليتيْه، فماذا سيَحْدث إنْ لم يأتِ السائق؟ وماذا لو نَفَد البنزين الذي تستخدمه العائلة لمولّد الكهرباء وللحفاظ على أدوية سهيل في البرّاد؟ سماح يَطْلب من أمّه أن تشتري من الـ BHV مبرّدًا صغيرًا (cooler) مع مكعّباتٍ ثلجيّة. لكنّ عايدة لا تريد الذهابَ إلى هناك لأنّ الـ BHV قرب الغبيْري (الضاحية الجنوبية). إذن، إذهبي إلى «بو خليل» قرب تلفزيون المستقبل (التابع للحريري). عجيب كيف نتعلّم أن نَرْسم خرائطَ جديدةً في رؤوسنا!

١١:١٥ صباحًا، «المنار» تختفي من جديد. هل قَصَفها الإسرائيليون؟ هل قُتل مُراسِلُنا الحبّوب؟

١١:٢٢ صباحًا، «المنار» تعود. أقلُّ ألوانًا، لكنّها تَصلِنا! إذن، قَصَفتْ إسرائيلُ الهوائيّاتِ، لكنّها أخطأتِ المراسلين. وإنّنا لفخورون باستعدادات «المنار» المتازة. ـ

١١:٤٢ صباحًا، الصوت يختفي بعد أن سَعَلَ المراسل. صمتٌ قصير أعصابُنا مشدودة. هل قَصَف الإسرائيليون المحطّةَ بقنابل الغاز؟ فجأةً يعود صوتُ المراسل. يبدأ جملةً جديدةً من دون أن يقول ولو «عفوًا.» سماح وأنا نَضْحك إلى متى سنبقى قادرين على الضحك؟

أصعد إلى فندق الإنتركونتيننتال لأبعثَ برسائلي الإلكترونية إنّه فندقٌ مكتظٌّ بالزوّار. سيّاراتٌ فخمةٌ أمام مَدْخله، وعائلاتٌ بأسرِها تَخْرج منها، وحقائبُ متلائمةُ الشكلِ واللونِ تُسْحب منها.

إنّ زوجَها وأبناءَها أميركيون، وإنّ السفارة أخبرتْها بأنّها ستَسْمح لها بالذهاب معهم لأنّها أمٌّ لأميركيين. أعْلمتُها أنّ السفارة تَطْلب من الأميركيين أن يوقّعوا ورقةً يتعهّدون فيها بدفع بطاقةِ سفرهم. هزّتْ كتفيْها قائلةً إنّ المال متوفّر لديْها. رددتُ أنّ المسألة ليست مسألةَ مال، وإنّما من «المقرف» أن تَدْفع الحكومةُ الأميركية ثمنَ القصف الإسرائيلي ولا تَدْفعَ لمواطنيها ثمنَ بطاقة هروبهم منه! انفجرتْ بالضحك «هيدي مشكلة ثانية!»

للعشاء، ليس أمامَنا إلاّ أن نُنْهي شوربةَ العدس التي صنعتُها الخميس؛ فحرامٌ رميُها إنْ كنّا نَجْهل متى سيصلنا طعامٌ جديد. سأُعِدُّ سلطةً بالخلّ، فالحامض ارتفع سعرُه من ١٨ ألف ليرة للصندوق إلى ٤٠ ألفًا لأنّه يأتي من الجنوب.

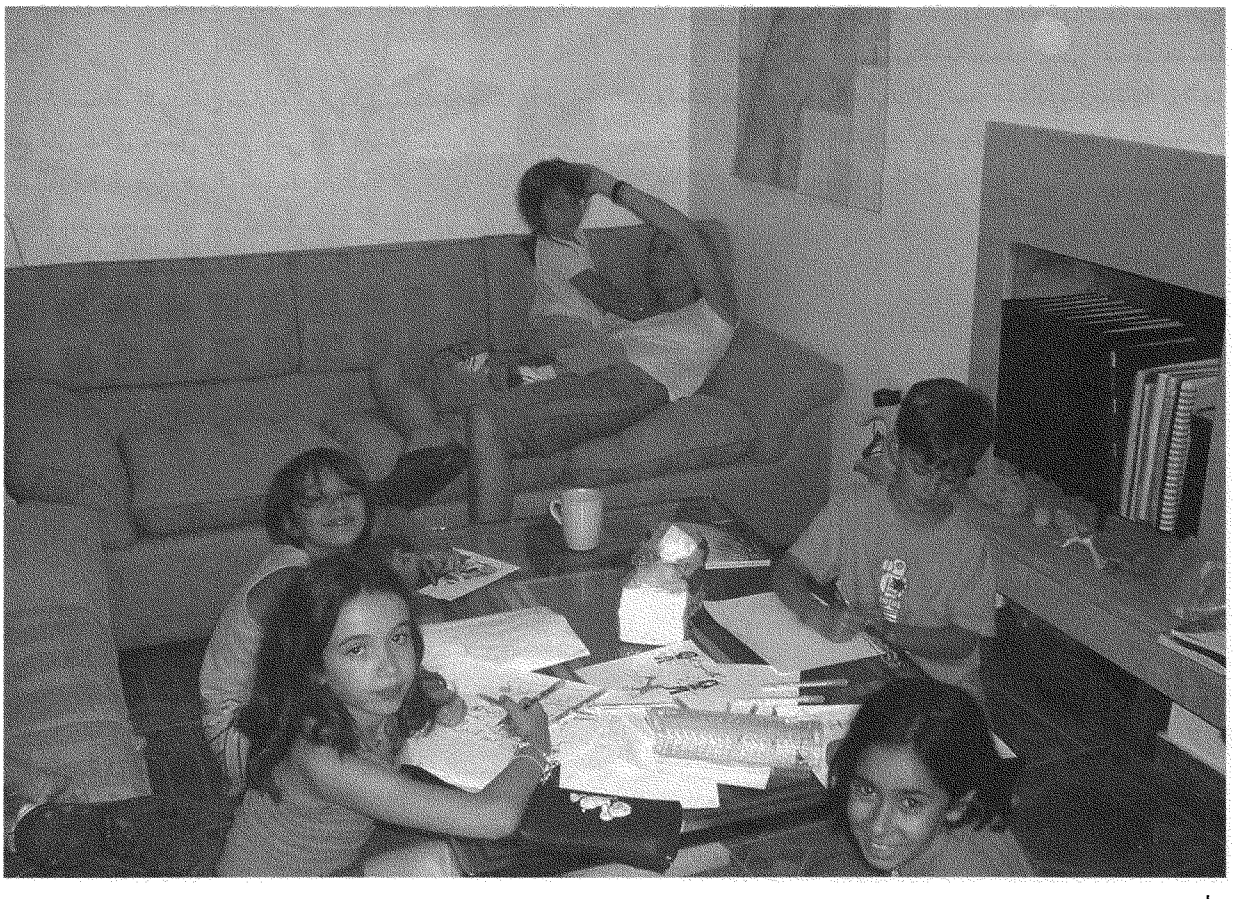

«الحياة في فقرا» (سارية وناي مع أولاد تيتا)

الحرس يَفْحص كلَّ سيارة بأداةٍ تبدو كالهوائي المطعوج. ثمة امرأةٌ غيري تريد استخدامَ الانترنت ٥ دولارات في الساعة، لا أقلّ. قالت إنّها لا تريد استخدامَه إلاّ لربع ساعة، فاقترحتُ أنْ نقتسمَ الوقت والثمن. صوَّبتْ نظرَها إليّ وسألتْ «أميركية؟» قلتُ نعم. «على عِلْمِك السفارة عَمْ تجْلي رعاياها؟» قلتُ نعم، لكي تسهِّل على الإسرائيليين قصفَ ما يشاؤون. ارتبكت المرأة. تابعتُ أنّ السفارة نَشَرَتْ إعلانَها على محطة LBC الليلةَ الماضية. قالت

الاثنين ٢٠٠٦/٧/١٧

كان يُفْترض أن أكون قد انتهيْتُ من الوصف التمهيدي (prospectus) لكتابي. لكنّ اليومَ ليس للكتابة، بل للتبضُّع. كانت سارية قد أفاقت باكرًا وطلبتْ مرافقتي في «حراجِلْ» توقّفتُ عند إحدى الصيدليّات. أمامي امرأةٌ تريد حليبَ «بليدينا.» جاءتها الصيدلانيةُ بعلبةٍ واحدة «ما عندِكْ

غَيْرها؟» سألت الزبونة ردّت الصيدلانية بأنّها تَمْلك علبةً أخرى ولكنْ «حرامْ» ـ ستبيعُها لعائلةٍ أخرى. هزّت المرأةُ رأسَها ودفعتْ ثمنَ العلبة سُررتُ لردِّ الصيدلانية، وفكّرتُ في أنّ كثيرًا من الميسورين يهرعون إلى المخازن فيشترون أكثرَ من حاجتهم ويَرْفعون الأسعارَ، فيَحْرمون الفقراءَ من شراء الأساسيّات.

«بو خليل» في بلدة «فيطرون» مليء بالناس. عليَّ الآن أن أعثر على سلّةٍ بلاستيكيةٍ للمهملات لأستخدمَها للبقالة. لا حليب، ولا طحين، ولا سكّر، ولا دجاج، ولا جرائد. ثمة بعضُ الخضار، وأطعمةٌ مثلّجةٌ «مُفَنْطزة،» وموادُّ لصناعة الأطعمة المكسيكية والصينية، وشتّى أنواع الكحول أحدُ الزبائن يسأل عند الدّفع عن حليب كانديا. «اللّه يِرْحَمُه،» ردّ المحاسِب، «ما سمعت الأخبار؟ مصنع كانديا كان من أوائل المباني المقصوفة بالبقاع.»

٩:٠٠ مساءً، طلبتُ من سارية وناي أن تستعدّا للذهاب إلى الفراش خلال خمس دقائق لكي أقرأ لهما. متشوّقةٌ أنا لذلك؛ فبالقراءة نتخيّلُ عوالمَ مختلفةً تمامًا عن عالمنا. لكنّ ناي كانت بعد ربع ساعة ماتزال تَعْبث بحبّةِ كرزٍ فوق الكومبيوتر حيث أجلس، فأتخيّلُ عصيرَها يَقْطر على ثيابي. أَصْرخ في وجهها أنْ نظِّفي أسنانَكِ واذهبي إلى السرير. تُطيع مهرولةً. غير أنّني وجدتُها بعد خمس دقائق تَلْهو بإحدى لُعَبها. أشتعلُ حنقًا: «قلتُ لكِ استعدّي للسرير خلال خمس دقائق.» ردّت بأنّها جاهزة ولكنّها تنتظر سارية. الآن، لم أعد أريد أن أقرأ لهما. غير أنّني لا أريد ألاّ أقرأ لهما: فماذا لو ماتتا غدًا؟ ألن أَشْعرَ بأنّني كنتُ خرائيّةً تجاههما؟ أو ماذا لو متُّ أنا؟ ألن يكون كلُّ ما بقي في رؤوسهما عنّي هو أنّني أُمٌّ «سَئِيلة» لا يهمُّها المرحُ مع ابنتيْها بقَدْرِ ما تهمُّها آدابُ السلوك؟

تَزْحف ناي إلى سريرها بعد أنْ أخبرتُها بأنّني لن أقرأ لها قصة **جُوني بي جونْز**. أقف أمام غرفتها فأراها ترتّب حيواناتِها المحشوّة، وهي ماتزال تَنْشج أقتربُ منها وأُمْسِك بذقنها لكي أديرَ وجهَها صوبي. «ليش عَمْ...» تقاطعني وهي تَصْرخ محتجّةً بأنّني أُمْسكها بقسوة كنتُ متأكّدةً أنّني لم أفعل ذلك، غير أنّني أَعْجزُ عن أن أشرحَ سببَ غضبي الشديد من تصرُّفاتها. حقًّا، إنّني أُمٌّ خرائيّة

الأربعاء ٢٠٠٦/٧/١٩

إلى بيروت، للذهاب إلى البنك، ولاستعمال الانترنت، ولغَسْلِ الملابس ولأكونَ هناك فحسب. أبقيْتُ جزداني معلّقًا على رقبتي ما دمتُ في المنزل، خوفًا من أن أُضطرَّ إلى تركه في أيّة لحظة. وأبقيتُ التلفزيون شغّالاً لكي أَعْلم أيَّ مناطق يستهدفها الإسرائيليون؛ فلعلّي أسمعُ تحذيرًا قبل أن يَنزلَ صاروخٌ علينا. كان صعبًا أن أركّز على عملي؛ ففي كلِّ دقيقةٍ أتوقّف وأطوفُ في البيت أبحث عمّا أحتاج إلى أن أُخرجَه معي من الأغراض أنظرُ إلى كلِّ الأشياء التي أَحَطْتُ نفسي بها وأتساءل أثمة ما هو مهمٌّ جدّاً، أو أهمُّ مِنْ غيره؟ أتكون المزهريةُ التي أهدانا إيّاها «ماهر» يومَ عُرْسِنا هي الأهمّ؟ أم الصحونُ التي كنتُ أتلقّى واحدًا منها في عيد الميلاد من كلِّ عام منذ أنْ وُلدتُ؟ أمْ لوحاتُ ريم الجندي، وجوليا بو فرح، وصديقتي العزيزة هالا؟ وماذا عن رسوم سارية وناي؟ وأقداح الشاي التي وَرِثتُها عن جدّتي؟ والأثوابِ التي جئتُ بها من فلسطين وتونس وأفغانستان؟ والعباءةِ التي أعطيتُها لجدّتي قبل أن تموتَ بالسرطان؟ وألبوماتِ الصور؟ وكلِّ كتبنا؟ والحُلى؟ والسّجاد؟

لا سبيلَ إلى حمايةِ كلِّ هذه الأشياء، فلأَدَعْها معًا حيث هي، ولآمَلْ ألاّ تُستهدَفَ «عينُ التينة» بالقصف. لكنّي سحبتُ صحنًا واحدًا من الصحون، يعود إلى سنة ميلادي، وصينيةً وَرِثتْها عايدة عن جدّتها التركية سيكونان، الصحنُ والصينيةُ، تذكاريْن لسارية وناي من طرفيْ عائلتيْهما.

بعد عشرين دقيقة قُصفتْ شاحنتان في الأشرفية.

عبثًا نحاول أن «نُمَنْطِقَ» ما يَحْدث لنا. فنحن نتصرّف وكأنّ هناك خطةً إسرائيليةً لشلِّ قطاعاتٍ محدّدةٍ من الحياة اللبنانية، في حين أنّ المستهدَفَ هو ببساطةٍ لبنان. ولا يأبه الإسرائيليون إنْ «أخطأوا الهدفَ،» بل قد يتعمّدون أحيانًا «أن يخطئوه» فيقصفوا المدنيين ليَدْفعوا بنا جميعًا إلى التخلّي عن دعم حزب اللّه. غير أنّ ذلك يَدْفعني إلى النقيض تمامًا فكلما «أخطأوا الهدفَ» ازددتُ اقتناعًا بأنّ الشيء الوحيد الذي سيحمينا هو أن تُقِرَّ إسرائيلُ بقوّتنا، بندِّيّتنا، بقدرتنا على إلحاق الأذى بالمعتدي.

أخرجتُ بقيّةَ الغسيل من النشّافة (وكان ما يزال مبتلاً)، ودحشتُه في حقيبةٍ أخرى أطفأتُ الكومبيوتر وسخّانَ الماء، وهبطتُ إلى السيارة مسرعةً

في فقرا شَعَرْنا، أنا وسماح، بالرغبة في المشي. صعدنا الجبل وركنّا السيارةَ قرب الإنتركونتيننتال هناك رأينا منظرًا غريبًا: بركةً تشعّ اخضرارًا وسط الظلام، وبارًا تتدلّى فوقَه عرائشُ الكَرْم، ومَنْقلاً يُشوى عليه اللَّحْمُ ثمة مراهقون في أوائل عشريناتهم أو أصغر يَحْملون كؤوسًا من الشراب، ويتحدّثون بصوتٍ عالٍ. «بِدْنا نِخْلص مِنْهم بَقَا،» «إيه، أنا بِفْتِكِر إنّو حزب اللّه...» وتَبِعَ ذلك كلامٌ بالإنكليزية. مشاعرُهم واضحة تمامًا: بودّهم أنْ يَخْلصوا من حزب اللّه. ولكنْ كيف «يَخْلصون» منهم؟ هل حزبُ اللّه «شلّة» مجانين متعصّبين هامشيين من الأقليّة؟ هل يَجْهل هؤلاء الصَّبْيةُ لماذا جاء حزبُ اللّه إلى الوجود أصلاً؟ هل

يُدْركون أنّ الدولة اللبنانية، التي يَتُوقون إلى أن تَبْسطَ سيادتَها على البلاد، لم تَفْعلْ شيئًا طوال عقود من أجل الجنوبِ والمناطقِ المحرومة الأخرى؟ إنّه لمِنْ حسنِ حظِّ بقيةِ اللبنانيين هذه الأيام أنّ حزبَ اللّه يَعْتبر نفسَه في خدمةِ لبنان لا في خدمةِ أتباعه وحدهم، وأنّه يَسْعى إلى تبريرِ نفسِه من خلال مصطلحاتٍ وطنيةٍ لبنانيةٍ جامعة لا أن يَفْرض وجودَه بقوّته العَدَدية. ثم مَنْ «سيَخْلص» مِمَّن؟ إنّ حديثَ هؤلاء الصِّبية تمرينٌ على الحرب الأهلية: حديثٌ يحثّهم على احتقارِ وكراهيةِ واستعداءِ مجموعةٍ من الناس يخالون أنّها ضئيلة غير أنّهم، باستخفافهم بقوةِ تلك المجموعة، إنّما يَدْفعونها إلى إبرازِ حجمِها وثقلِها الحقيقيَيْن

الحربَ أقلُّ من ٥٠٪ من الناس، فإنّه ينبغي ألاّ يُسْمَح لهم بفرضها على البلاد كَرْمى لأسيريْن في إسرائيل. لدينا أكثرُ من ٥٠ أسيرًا في سوريا، ولهم أمّهاتٌ هُمْ أيضًا.»

لم أردّ عليه برسالةٍ سمجةٍ كتبتُها في رأسي: رجاءً، اخطفْ جنودًا سوريين من أجل البدء بمفاوضاتٍ حول إطلاق سراح اللبنانيين هناك. ستكُون بذلك شجاعًا فعلاً، خاصةً أنّني لم أَسمعْكَ تقول وَلَوْ «بُوو» للسوريين حين كانوا يتحكّمون بالبلد. أمّا بخصوص إحصائياتكَ، فأين سَنَدُها الأكاديمي؟ مِن استطلاعات الرأي؟ ولكنّ «الدولية للمعلومات،» وهي أكثرُ وكالاتِ الاستفتاء صدقيّةً، نشرتْ نتائجَ قبل بضعة شهور تُفيد بأنّ أكثرَ من ٩٠٪ من الشعب اللبناني يَعْتبرون إسرائيلَ هي العدوّ أتراكَ استندتَ،

«من يردع إسرائيل عن اصطياد الجنوبيين؟» (الغندورية)

الخميس ٢٠٠٦/٧/٢٠

رسالة إلكترونية من أستاذ تاريخ لبناني في الجامعة الأميركية في بيروت. «شكرًا كيرستن على رسالتك [إشارةً إلى افتتاحية سماح التي وزّعتُها على الإنترنت] [١] أختلفُ معها . فحين يريد

إذن، إلى التحالفات السياسية؟ ولكنّ حزب اللّه يتمتّع بتحالفاتٍ قويةٍ مع «أمل،» والجنرال عون، والقوميين، والشيوعيين، وحركة الشعب، والمردة، وعمر كرامي، والبعث، والتنظيم الشعبي الناصري طبعًا هناك أطراف لا تَدْعمه، كالقوات اللبنانية والحزب الاشتراكي (الذي يمثّل، في أحسن الأحوال، نسبةً كبيرةً

١ ـ «حرام لبنان؟» www.adabmag.com

من طائفةٍ ضئيلةِ العدد أصلاً) وتيّار المستقبل والأغنياء من أكثر الطوائف (وهم مؤثّرون ولكنّهم قلّة) وهذا يعني أنّ علينا القيامَ بإحصاءٍ دقيقٍ يَشْمل كلَّ لبنان... لا حَرَمَ الجامعةِ الأميركية أو رأسَ بيروت وحدهما!

زوجُ صديقةٍ لي على شاشة الـ LBC الآن. ستغضبين يا صديقتي، ولكنّني لا أصدّق أنّ زوجَكِ يشكو من ضياع مشروع «القرية الفينيقية» الترفيهي الذي لم يرَ النورَ أصلاً، في حين أنّنا لا نستطيع حمايةَ قرى جنوبية **حقيقية** من الغارات الإسرائيلية اليومية! إنّ ما رَدَع إسرائيلَ عن اصطياد أبناءِ الجنوب هو تفاهُمُ نيسان عامَ ١٩٩٦ الذي فرضه حزبُ اللّه حين أثبتَ قدرتَه على إرسال الكاتيوشا إلى المستوطنات الشمالية كلّما تعرّضَ المدنيّون اللبنانيون للقصف. زوجُكِ، يا صديقتي، كبائع اللبن الذي راح يَحْلم بما سيشتريه بعد أن يبيعَ اللبنَ، فلم ينتبهْ ـ لفرطِ سعادته ـ إلى الطريق، فتعثّرَ وضَيَّعَ اللّبن. لقد كانت الأحلامُ التي يَعْجز عن تحقيقها كبيرةً في رأسه، لكنّها لم تكن في واقع الحال إلاّ لبنًا مدلوقًا. وما دمنا عاجزين عن حماية المدنيين اللبنانيين والبنى التحتية اللبنانية من الاعتداءات الإسرائيلية، فستبقى «خسارةُ» زوجك للقرية الوهمية في وسطِ بيروت التجاري محضَ مالٍ مدلوقٍ، مدلوقٍ بسبب الإهمال والغباء. وإذا كان هناك من فارق، فهو أنّ ما سيَخْسره زوجُكِ يا عزيزتي محضُ أحلام، في حين أنّ دافعي الضرائب سيضيِّعونَ «اللبنَ» فعلاً بسبب السياسة الحريريّة الحمقاء التي راكمتْ علينا ديونًا سنَدْفعها أجيالاً تلو أجيال

السبت ٢٠٠٦/٧/٢٢

أثناء إعدادي الترويقة أسْمع أحدَ أبطال الصور المتحرّكة التي تشاهدها سارية يَصْرخ بأنّ على الناس أن يَفْعلوا شيئًا ضدّ «أزعر» (bully) في المدرسة؛ «فأنا لا يُمكن أن أكون طرفًا في هذا الظلم.» كنتُ قد نسيتُ مدى شيوع مفهوم «الظلم والعدل» في برامج التسلية الأميركية أما في **السياسة** الخارجية الأميركية فلا يحقّ للآخرين أن يطالبوا بالمساواة، ولا بالتعويض، ولا بالبقاء في بيوتهم، ولا بالتحرّك، ولا بالتعبير، ولا بالنموّ، ولا بالأمان. فأنْ يطالِبوا بذلك يعني أن يواجهَهم مجلسُ الأمن بضوءٍ أحمر، في حين تتلقّى إسرائيلُ ضوءًا أخضر. إنّ العدل في الولايات المتحدة مفهومٌ كرتونيّ، يخصّ الصورَ المتحرّكةَ وحدها!

الأحد ٢٠٠٦/٧/٢٣

نقرّر أن نَرْجع إلى بيروت نقضي النهارَ هناك، ونعود بعد الظهر إلى فقرا كما جئنا. نتجاوز المرفأ فأشعر بأمانٍ أكبر، لكنّني أواصل النظرَ إلى الوراء لكي أتأكّد من أنّ بيروت ماتزال هناك. بعد ربع ساعة نَسْمع أنّ الإسرائيليين بدأوا قصفَ الضاحية.

لطالما خِفْتُ أن أتعرّض للقصف إلى حدّ أنّني شعرتُ بأنّه نَسِيَني! يتملّكني فضولٌ غريبٌ لأن أُقْصَفَ ثم أنجوَ. فإلى الآن اقتصرتْ تجربتي عن الحرب على رؤيةِ آخرين يعيشونها عنّي، وهذا يُشْعِرُني بالرُّخْص. هذا لا يعني طبعًا أنّني سأهرول نحو الجنوب، لكنّني لستُ فخورة بأنّني لم أُستهدَفْ.

للعشاء أُقرّر أن أُعِدَّ «تاكو» لأستفيد من اللحم المفروم القابع في البرّاد منذ ثلاثة أيام. خطر التسمُّم وارد، ولكنّ الرائحة مقبولة أيةُ مفارقة: أن أَقْتُلَ عائلتي تسمُّمًا فيما أحاول تفاديَ الحرب! أَعقدُ العزمَ على إبقاء اللحم على النار مدةً أطولَ من المعتاد. النتيجة أنّ الطعامَ أفضلُ من العادة، ولم يَظْهر أنّ أحدًا مَرِضَ ها نحن، إذن، من الناجين أيضًا!

أَعِدُ البنتيْن بأن أقرأ لهما من كتاب **أيّام نارنيا** إنْ نظّفتا أسنانَهما وارتدتا البيجامةَ على الفور. نتابع قصة الأمير «كاسپيان» في حربه لتحرير مملكتِه من «ميراز» الشرير العنصرية في هذه السلسلة صادمةٌ حقّاً ـ فأسماءُ الأشرار وأزياؤهم ووجوهُهم فارسيّةٌ أو تركية. إذن، القصص التي أعانت الأطفالَ البريطانيين على تجاوز الحرب العالمية الثانية أسهمتْ، هي نفسُها، في بلورة فهم «الغربيين» لمبرّرات حروبهم ضدّ أعدائهم. وها نحن الآن في موقع المعتدَى عليهم بسبب أسمائنا وأزيائنا وأنماطِ حياتنا. إنّه الاستشراقُ يدور من جديد لكنّني أواصل القراءة، مشيرةً إلى العنصريةِ فيها أينما ظَهَرتْ.

الاثنين ٢٠٠٦/٧/٢٤

كونداليسّا رايس، الناجيةُ من الإبادة الجماعية في أفريقيا، تأتي في زيارةٍ مفاجئة للضغط على الحكومة اللبنانية من أجل الموافقة على الإبادة الجماعية الجديدة. أمرٌ طريف فعلاً. أفكّر في أنّ مجيئها شخصيّاً للضغط على لبنان يعني أنّ الإسرائيليين يَشْعرون أنّهم في الميدان لا يتقدّمون إنشًا واحدًا باتجاه أهدافهم.

أعمالُ دفنٍ جديدةٌ في غزّة. أيّة مفارقة: هناك تجرّأوا على أن يَنْتخبوا ديموقراطيّاً حكومةً معاديةً للولايات المتحدة، وهنا انتخبوا «ديموقراطيّاً» (بدعم السفارات الأجنبية) حكومةً مواليةً للولايات المتحدة ـ مواليةً إلى حدّ الطلبِ منها السماحَ لهم بتقبيلِ قدميْها. لكنّ النتيجةَ واحدة في الحاليْن. حصارٌ، ومنعٌ، وقصفٌ، ومجازرُ ضدّ المدنيين، وكلُّ ما مِنْ شأنه أن يُفيدَ الحكومةَ الإسرائيلية.

الثلاثاء ٢٠٠٦/٧/٢٥

بتُّ أشتري الأشياء كما يعانقُ الناسُ رفاقَهم القدامى. فقد عثرتُ على كيسٍ من مسحوق «لاڤكْس» (الذي لا يَدْعم إسرائيل) فوق أحد

الرفوف في مخزنٍ في فاريا، فشَدَدْتُه إلى صدري كزميلٍ عزيزٍ من أيام الطفولة لستُ أحتاجُ فعلاً إلى مسحوق غسيل، ولكنّني اشتريتُه خوفًا من ألاّ أرى ذلك المسحوقَ مرةً ثانية أعترف بأنّني سخيفة.

الأربعاء ٢٠٠٦/٧/٢٥

أخبار الـ LBC «السعيدة» هذا الصباح تُظْهر مساعداتٍ ملفوفةً بالأعلام الأميركية. تُرى لماذا لا يلفّون الأباتشي والـ F-16 والقنابلَ «الذكيةَ» بالأعلام الأميركية أيضًا؟

إلى بيروت غدًا. نايْ إلى بيت كرمى. ولكنْ ماذا نَفْعل بسارية؟ فنيكول في بوسطن، وزِينة في ألمانيا. أتّصِلُ بأمّ نُورا، لكنّ نُورا

الخميس ٢٠٠٦/٧/٢٧

في فاريّا تمشّيتُ مع ناي إلى «بوظة بشير.» هناك سألني البائع لماذا لم أغادرْ لبنان؟ قلتُ لأنّ بيتي هنا، في لبنان. سألني «شو أَخَدْتي؟» استغربتُ لأنّني سَبَقَ أن أَعْلمتُه بالنِّكهات التي أريدها من البوظة. يقول إنّه يَقْصد أيَّ رجلٍ تزوّجتُ، «مسلم أو مسيحي؟» أجبتُ أنّ زوجي لا يهتمّ بهذه الأمور، ولا يَعْتبر نفسَه لا هذا ولا ذاك، لكنّه ـ اجتماعيّاً ـ يُعْتبر مسلمًا. ضرط الرجلُ من شفتيْه، وكأنّ ذلك حَلَّ له الأمورَ. سألتُه إنْ كان سيغادر البلاد، فردّ بأنّه لا يستطيع لأنّه لا يَمْلك إلاّ جنسيّةً لبنانية. ثم أَلْمح إلى أنّ

«لماذا لا يلفّون القنابل الذكية بالاعلام الأميركية؟» (صاروخ لم ينفجر في منزلٍ امرأة جنوبية في الطيبة)

في فرنسا «وما بتَعْرف إنّو في حربْ حتّى» ـ على ما قالت أمُّها فرحةً. ذُهِلتُ. أيُعْقل ألاّ تُشاهدَ ابنةُ الأحدَ عشر عامًا نشراتِ الأخبار، أو تلاحظَ الجرائدَ، أو تَسْمع الناس؟ ومضت أُمُّ نورا تُعْرب عن ارتياحها لعدم تأثُّر ابنتها بالحرب على الإطلاق حسنٌ ألاّ تتعرّض نُورا لأيِّ أذًى، قلتُ في نفسي، ولكنْ.. ألاّ «تتأثّر بالحرب»؟ ألاّ تعي أنّ وطنَها قد صَنَّفه «المجتمعُ الدولي» حقلاً حُرّاً للرماية؟

«المنطقة هونْ» آمنةٌ على كلّ حال قلتُ انْ لا أحد يدري؛ فأميركا متحمِّسة لمواصلة القصف، وهي ترسل الصواريخَ يوميّاً إلى إسرائيل إلى درجة أنّ هذه قد تُضطرّ إلى استعمالها كيفما وأينما كان. دفعتُ له وغادَرْنا، أنا وناي. كنتُ في البدء أَقْصد أن أبدوَ له «امرأةً مهذّبةً متزوِّجةً من مسلم،» لكنّه تغلَّب عليّ بِحَشْري في لعبته الطائفية السمجة.

الاثنين ٢٠٠٧/٧/٣١

٤.٤٥ صباحًا، تلفون من فينيكْس. صوتُ المذيع «دجايْ» خشنٌ وودودٌ. المتّصلون بالمحطّة جميعُهم من الذُّكور، فوق الثلاثين، وكلُّهم يخاطبوننا ـ أنا ورانية المصري ـ بـ «هاتيْن السيدتيْن» (those ladies). قَدَّمَ دجايْ حلقةَ النقاش هذه الليلة بالقول إنّ ما دفَعَه إليها هو اتّهامُه بموالاةِ إسرائيل في تغطياته. ثم سألَنا إنْ كان أيٌّ منّا على ارتباطٍ بحزب اللّه؟ تجيب رانية أنّ حزب اللّه يمثّل قطاعًا ضخمًا من السكّان، وأنّها بالتأكيد تَعْرف أشخاصًا يَدْعمونه ويَعْملون معه وما إلى هنالك. أُضيفُ أنّ رجال حزب اللّه هم كـ «رجالِ الدقيقة» (Minute Men) الذين دَرَسْناهم في المدرسة الابتدائية: فهم ليسوا كالجيش النظاميّ الثابت بل جيشٌ يتحرّك خلال دقيقة لمواجهة الغزوات بفعّالية، فيَرْبح بفضلِ التزامه وتفانيه ـ لا بفضلِ أيّة آليّاتٍ متفوّقة.

يقول دجايْ إنّ إسرائيل «بلدٌ صغيرٌ يحيط به جيرانٌ غيرُ لذيذين (unfriendly)، فماذا ينبغي أن تفعل؟» تجيب رانية بأنّ لبنان أصغرُ بكثير ويستحقّ أن يتمتّعَ بحقّ الدفاع عن نفسه. أعترضُ على تعبير «غير لذيذين» وأقول: «لو جاءكم ناسٌ وقالوا إنّهم أحسنُ منكم لأنّ معتقداتِهم أو نظامَهم العائلي أفضل، فهل ستكونون لذيذين معهم؟ لو قالوا لكم إنّ عليكم أن تغادروا بيتَكم خلال ساعة، فهل ستكونون لذيذين معهم؟» وأضفتُ أنّ المسألة ليست أنّ العرب «غير لذيذين،» وإنّما أنّهم يَرْفضون التعاونَ مع العنصرية الإسرائيلية التي تُخْبرهم تلك الأشياءَ صباحَ مساء وتتصرّف على أساسها دومًا.

كان يَقْطع المقابلةَ كلَّ عشر دقائق خبرٌ عن الازدحام أو الطقس. كنتُ قد نسيتُ كَمْ يَهْجس الأميركانُ بأحوالِ الطقس: بمعرفة الحرارة، والرطوبة، وعددِ الغيوم العابرة لسمائهم. إذن كيف لا يستطيعون أن يَفْهموا اعتراضَنا على عبور الطائرات الإسرائيلية لسمائنا؟

يتّصل رجلٌ بصوتٍ ذي نخير. يقول: «هاتان السيّدتان تديران أُذُنَ الجرّة كما تشاءان. أَعرفُ أمرًا واحدًا بالتأكيد، وهو أنّ الأوانَ قد آن لنَهْوي بالمطرقة (put the hammer down) وندخُلَ إلى سوريا وإيران، أيّاً كانت التبعات.» توقِفُه رانية «هل تستطيع مِنْ فضلِكَ أن تعرّف تمامًا ما تعنيه بـ 'نَهْوي بالمطرقة'؟ هل نحن مجرّدُ مسامير بالنسبة إليك؟ أتُدرك أنّنا بشرٌ أيضًا؟» يردّ دجايْ: «إنّ ذلك مجرّدُ تعبير.» أتدخّل: «بل هو تعبيرٌ ملطِّفٌ (euphemism) يمكّن الناسَ من تجنُّب التفكير في ما يطالبون به حقّاً. وهكذا يستطيعون أن يتحدّثوا عن أفعالٍ تَشْمل قَتْلَ المدنيين مثلاً من غير أن يضطرّوا إلى التفكير في ما تَشْمله فعلاً. إنّ على هؤلاء الناس أن يقولوا إنّهم يدعمون قتل كلّ الأطفال اللبنانيين إذا كان هذا هو ما يتطلّبه تحقيقُ مشروع بوش للشرق الأوسط الجديد.» وزِدتُ أنّ الأميركيين منافقون إنْ أغاظهم قولُ العرب: «كلُّ إسرائيلي يؤدّي الخدمةَ العسكرية في الجيش، فكلُّ إسرائيلي جنديٌّ إذن، وعليه فإنّ لنا الحقّ في قتلِ كلّ الإسرائيليين!» وختمتُ بأنّ المتّصل صاحبَ «المطرقة» لا يقولُ غيرَ ذلك، وهذه إبادةٌ جماعية.

متّصلٌ آخر يَشْرح أنّ الناس كانوا سيَتعاطفون مع حزب اللّه لو لم يضع مقاتليه وراجماتِه بين المدنيين. أردُّ بأنّ بلادَنا ليست صحراء كما يظنّ كثيرٌ من الأميركيين، بل منطقةٌ زراعيةٌ خصبةٌ عامرةٌ بالسكّان. إنّ مقاتلي حزب اللّه جزءٌ لا يتجزّأ من الشعب، لا غرباءُ عنه، والوسيلةُ الوحيدةُ لمحاربة إسرائيل وطردِها هي أن يكونوا هناك. إنّ الإسرائيليين يقولون إنّ حزب اللّه يستخدم الناسَ «دروعًا بشريةً،» في حين أنّهم **هم** الذين يَقْصفون القرى بالقنابل العنقودية من الجوّ. إنّ الإسرائيليين هم الذين اختاروا أين يقاتلون، فلا يحقّ لهم أن يُخْبرونا كيف نواجههم.

ثم اتّصل رجلٌ قال إنّه خَدَم في حرب الخليج الأولى (١٩٩١) وإنّه فخورٌ بذلك. وأضاف أنّ الجنود حاربوا هناك لإزاحةِ ديكتاتوريةٍ، وهذا أمرٌ جيّد، ولكنّ إسرائيل ديكتاتورية هي أيضًا، والعنصرية الإسرائيلية هي التي تَمْنع تحقيقَ السلام في الشرق الأوسط. فإذا كان لا بدّ من إرسال الجنود إلى أيّ بقعةٍ من العالم الآن، «فيجب أن يُرسَلوا إلى إسرائيل، وأن يُنشِئوا منطقةً عازلةً في شمالها من أجل حماية اللبنانيين من الإسرائيليين.» وطالب المتّصلُ بنشر القواتِ الدولية في إسرائيل للتأكّد من أنّ الإسرائيليين لا يسيئون معاملةَ الفلسطينيين كما هو واقعُ الأمر.

كانت الحلقة قد شارفتْ على النهاية. سألني «دجايْ» إن كانتْ لديّ أيةُ ملاحظات ختامية. فقلتُ إنّني أريد من المستمعين أن يدركوا أنّنا نواجه أزمةً اجتماعيةً كبيرةً في لبنان، لكنّ المواطنين يتصدَّوْن لها بشجاعةٍ وإبداع. فهم يساعدون النازحين بشكلٍ جماعي، ويكتبون الشِّعْر، ويوقّعون العرائضَ. إنّهم ليسوا ضحايا، بل شعبٌ قويٌّ خلاّق. أما بخصوص المساعدات التي تأتي ملفوفةً بالعلم الأميركي، فإنّها تذكّر اللبنانيين بأنّ القنابل الذكيّة التي تَقْتل مواطنيهم هي أيضًا أميركية ولو لم تُلفّ بالعلم الأميركي. قاطعني دجايْ «غير أنّ المساعدات الأميركية وصلتكم فعلاً يا كيرستن.» أجبت: «نعم، أتراها جاءت لتُسْمِنَنا قبل أن تأتيَ القنابل؟!» وتابعتُ أقول إنّي أريد فعلاً من الإميركيين وحلفائهم أن يفكّروا في أهدافهم من هذه الحرب، وأنْ يدركوا أنّ اللبنانيين ليسوا مجرّد ضحايا يتلقَّوْن قنابلَهم ومساعداتِهم بل شعبٌ سيقرّر حياتَه بنفسه.

الأربعاء ٢٠٠٦/٨/٢

قرّرتُ أن أعود إلى بيروت وألاّ أتركَها حتى نهاية الحرب. كنتُ متحمّسةً جداً للعودة، إلى درجةِ أنّني بمجرّد وصولي قمتُ فورًا بمشوار لأسترجعَ ثمنَ بطاقات المهرجانات الملغاة، ولأبدّل قميصَ ناي الصغير، ولأشتري بقالةً في طريق العودة.

كان مجمَّعُ الـ ABC خاليًا وجدتْ سارية تنّورةً أعجبتْها نظرتُ إلى ثمنها. خمسون دولارًا! لطفلة؟ لتنّورة؟ وقطنيّة أيضًا! ثم فكّرتْ: «لطيزي... حتى لو قَصَفَنا الإسرائيليون ولم نَقْبضْ معاشاتِنا من جديد، وحتى لو اضطُررْنا إلى أن نَدْفع ١٠٠ دولار ثمنًا لكيس طحينٍ وحامضتيْن! فاللامبالاة ليست خلقةً بل خيار. ولقد اخترتُ ألاّ أبالي إنْ قرّر الجنودُ الصهاينةُ الطافحون بحسّ التفوُّق العنصري أن يَطْلُوا وجوهَهم بالأخضرِ والبنّي، وأن يتوجّهوا إلى وطني وبيتي ورأسي. فلن أدعهم يقرِّرون حياتي ومزاجي.» لذا طلبتُ من سارية أن تجرِّب التنّورة، واشترياها ثم تبيّن أنّها خضعتْ لتنزيل ٤٠٪ من ثمنها. لقد كانت اللامبالاةُ في هذه الحالة، إذن، غيرَ مكلفة!

في فرع «ڤيرجين» أَعدتُ بطاقات مهرجان بعلبك وبيت الدين، باستثناء عَرْض فيروز. كان استردادُ مالي راحةً كبيرةً لي. في طريقنا إلى السيارة رحتُ أجرّ سارية جرّاً «لماذا تركضين؟» سألتني. حاولتُ أن أشرحَ لها أنّنا، حتى لو كنا رسمياً الآن في حالٍ من اللامبالاة، فعلينا أن نستعجل.

٢:٤٥ صباحًا، التيار ينقطع، ويعلو إنذارُ بطاريّة الكومبيوتر، فنستيقظ. ثمة انفجارٌ هائل. بطني يرتجف. سارية تَصْرخ. سماح يذهب إليها، وأنا أذهب إلى ناي. يقود سماح سارية إلى غرفة ناي لأنّها الأقلُّ تعرُّضًا لخطر الشظايا والقذائف. في البدء نَجْلس ملتصقين بالحائط، ثم يَسْحب سماح السريرَ

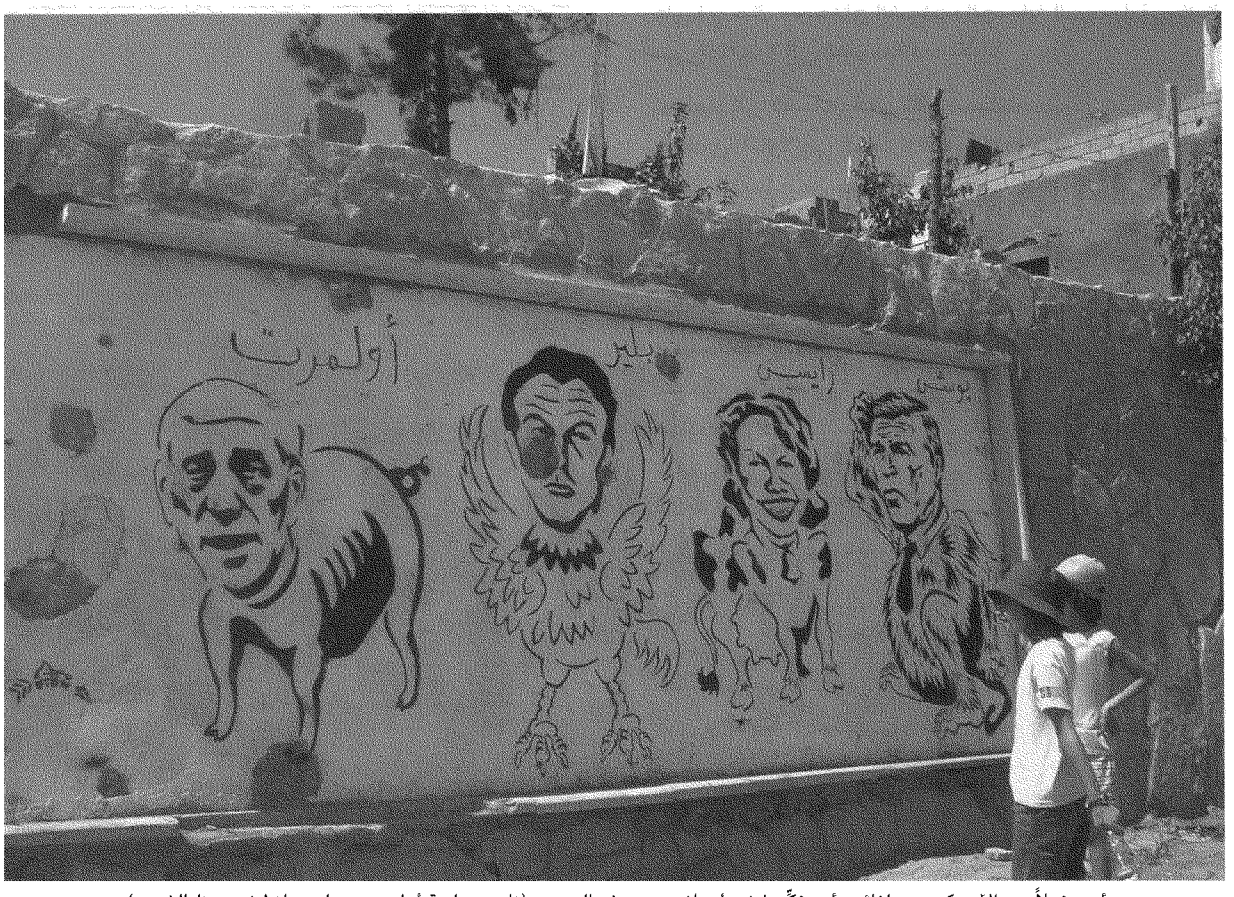

«أريد فعلاً من الأميركيين وحلفائهم أن يفكّروا في أهدافهم من هذه الحرب» (ناي وسارية أمام رسم على حائط في عيتا الشعب)

بعدها ذهبنا إلى مقهى «پول» لأنّ سارية كانت عطشانة. طلبْنا ليموناضة، لكنّ الموظّفين البشوشين قالوا بصوتٍ واحد: «ما في عصير طازهْ.» آه، طبعًا، بسبب الجنوب. انتهت اللامبالاة إذن! ثم لَفتتْ نظري صينيةٌ من الطورطات الصغيرة طورطةٌ بالحامض، وأخرى بالشوكولا، وثالثةٌ بالتوت. سألتُ إنْ كان الحامضُ على الطورطة اصطناعيّاً «لا، حقيقي، حقيقي عن جدّ،» ردّ الموظّفون. اشتريتُ الطورطات الثلاث. ها قد عدتُ إلى اللامبالاة!

المنخفضَ من تحت سرير ناي. بطني لا يزال يرتجف، وسارية تبكي قليلاً. أمسّد شعرها وأقول لها إنّنا بخير، وإنّ عليها فقط أن تفكّر بكلماتٍ تعبِّر عن شعورها الآن؛ حتى إذا كبرتْ أو سمعت الناسَ في كليڤلاند يقولون إنّ الإسرائيليين طيِّبون، أَفْهَمَتْهم فورًا سببَ مخالفتها رأيَهم. تسألني سارية عن القطّتيْن سيما وقمر. أجيب بأنّهما في الصالون على الأرجح. ثم أتذكّر ما يذيعُه تلفزيونُ المنار حين يَسْقط شهيدٌ، فأقول: «ننعى الشهيدَ

قمر سماح إدريس.. » يضحك سماح ضحكةً خافتة، ثم يتلو بيانَ النعي بصورته الكاملة. ها نحن نقهقه كلُّنا الآن. تسأل سارية أين ضَرَبَ الإسرائيليون. تسأل ناي متى حصل الضرب؟ نَنْظر إليها جميعًا. «ناي، ما سمعتِ الانفجار؟» «لأ» تردّ. نسألها من جديد: «ما بتعرفي ليش كلّنا هون؟» فتجيب بأعذبِ الأصوات. «فكّرت إنّو العَيْلة اشتاقت لي.» ها نحن الآن نَصْرخ من الضحك. لقد تحقّق حلمُ ناي الأكبر. فها هي عائلتُها متحلّقة من حولها في عزِّ الليل.

الخميس ٢٠٠٦/٨/٣

البنتان تتشاجران: مَنْ دَفَشت الأخرى أو اصطدمتْ بها، وأيّتُهما تجشّأتْ، ومَن الخنزيرةُ «الطالعة ريحتها،» وكلُّ ما مِنْ شأنه أن يُشْعِرَني بأنّني أمٌّ فاشلة. أغطّي ناي في سريرها، وفجأةً تنسى أختَها وتسألني: «مامي، الأوضة آمنة؟» أجيبها بأنّها الغرفةُ الأكثرُ أمانًا في البيت. «مامي، إذا قصفتني إسرائيل، بدّي هاالشي يكون بالليل، أوكي؟» ثم تبكي. تَدْخل سارية الغرفةَ لتسأل عن سبب البكاء. ترفع ناي بصرَها إليها وتقول: «سارية، ما قلت لك مِنْ قَبْل، أنا بحبّك!» سارية لا تهمّها هذه الميلودراما أبدًا، بل تُخْرج لسانَها لناي. لكنّ ناي تَثْبت على رأيها: «سارية، عن جَدّ بحبّك. بدّك تنامي حدِّي؟»

الأربعاء ٢٠٠٦/٨/٤

استمرّ اجتماعُنا مع الناشطين والأصدقاء ٦ ساعات. لـ «حركة التضامن العالمية» في فلسطين تجربةٌ مختلفةٌ جدّاً من المواجهة مع الاحتلال الإسرائيلي، ولدى أعضائها أفكارٌ جديدةٌ للعرض. ومع ذلك فهم يريدون أن تأتي القيادةُ من المحليين. غيرْ أنّنا لم يسبقْ أن فكّرْنا في الاحتمالات التي يَطْرحونها، ولم نفكّر كمجموعة في مسؤولياتنا تجاه الآخرين. سيكون من شبهِ المحتَّم، إذن، أن تلعبَ الحركةُ دورًا قياديّاً، ولكنْ من غير أن تجدَ شركاءَ محليين جاهزين. أعني أنّنا متحمّسون للفكرة، لكنّنا عامِرون بالشكوك

١٢.١٥، تأخّر هؤلاء الإسرائيليون الليلة. فلقد تجاوزت الساعةُ الثانيةَ عشرةَ ولم يَقْصفوا شيئًا بعد. ماذا حلّ بهم؟ ألا يَعْلمون أنّ عليهم أن ينفّذوا حربًا؟ وكيف سيتخلّص العالمُ من كلّ الإرهابيين والعرب إذا تكاسلَ الإسرائيليون وتراخَوْا بعد ٢٤ يومًا فقط من لَعْن الأخضر واليابس في هذا البلد؟ أنا مستيقظةٌ طوال الليل، وأقلُّ ما يَفْعلوه هو أن ينفّذوا!

تُسعدني كتابةُ ذلك تُشعرني بأنّني أتحكّم بمصيري.

أيّةُ مزحة!

السبت ٢٠٠٦/٨/٥

تمّ تنظيمُ جولةٍ لنا إلى الضاحية هذا المساء. يريد نشطاءُ «حملة التضامن العالمية» أن يَنْصبوا خيمةً في منطقةٍ لم تتعرّضْ بعدُ للقصف، من أجل منع الإسرائيليين من قصفها، ولكنّهم يريدون استطلاعَ المكان أولاً. سماح يعتقد أنّهم مجانين مع أنّه هو الذي كان قد دبّر لهم الجولة. أما أنا فأريد الذهابَ معهم. لا أستطيع تعليلَ ذلك. أعرفُ أنّ في الأمر خطورةً، وأعرفُ أنّنا لسنا في سياحة، غير أنّني أرفضُ تلك الهوّةَ المفروضةَ بيني وبين سكّانِ بيروت الآخرين، بين العاصمةِ وضاحيتها الحيّة، بين أنماطِ العيش وأشكالِ الخطابات. «طيِّب،» يوافق سماح، لكنّه لا يلبث أن يتحدّث بطريقةٍ احتقارية: فماذا سأحقّق بذهابي إلى هناك؟

على أيِّ حال سيحتاج الشبابُ والصبايا إلى سيارتي، إذ لا سيّارات أجرة إلى الضاحية هذه الأيام

توجّهنا إلى الضاحية في ثلاث سيّارات، سالكين الطريقَ من مستديرة الكولا إلى السفارة الكويتية، فالمشرْفيّة حيث سَبَقَ أن وزّعْنا كتيّباتٍ عن مقاطعة الشركات الداعمة لإسرائيل قبل عامَيْن، ومنها إلى جسر المطار. الجسر مشطورٌ إلى نصفيْن من فوقنا، غير أنّ الركامَ أُزيل تمامًا. إنّها مدينةُ أشباح، لكنْ نظيفة! انعطفْنا يمينًا. ثمة محطّةُ «توتال» إلى اليسار، بقيتْ هياكلُ مضخّاتها ولا شيء داخلها. عَلَمٌ كبيرٌ لألمانيا مشدودٌ إلى مبنيَيْن. يقول دليلُنا إنّ جميع الأعلام كانت موجودةً أثناء مباريات كأس العالم لكرة القدم، إذ لكلّ دولةٍ مشاركةٍ مناصروها. «حتى أميركا؟» أسأل. «لأ، مِشْ أميركا، هيدي الدولة الوحيدة اللّي ما حدا بيرفع علمها هون،» يجيب، مضيفًا أنّ المشكلة ليست مع الشعب الأميركي بل مع حكومته. أردُّ بأنّ على هذا الشعب **نفسه** أن يتحمّلَ جزءًا من مسؤوليةِ ما يجريَ هنا، إذ لا يكفي أن يتنصّل من الجريمة فقط.

نصل إلى «المربّعَ الأمني.» يستحيل تمييزُ الشوارع من المباني! الركام أمامي في مستوى رأسي. أتسمّرُ في مكاني. لقد سبق أن شاهدتُ ذلك على التلفزيون، ولا يَجْعله قُربي منه الآن أكثرَ حقيقةً.

فيما أتلمّس طريقي بين الحطام خَطَر لي أنّ ما نشاهده هو النسخةُ المعولمةُ ما بعد الحداثية للبراكين التي أَنتجت الأشكالَ الصخريّةَ الغريبةَ التي أتسلّقها في فاريّا. ثمة أغنيةٌ تنتشلني من حزني: «واللّه وطلّعْناهم برّا بالزنود المفتولة الحرّة!» إنّها تحيةٌ لأبطال المقاومة الوطنية اللبنانية الذين طَرَدوا الإسرائيليين من بيروت صيفَ ١٩٨٢ بعد ١١ يومًا فقط من الاحتلال. ما أشدَّ هَبَلَ الإسرائيليين اليوم إنْ ظنُّوا أنّهم باقون في لبنان إلى الأبد.

أحاول أن أدرسَ الحُطامَ، كما يَفْعل علماءُ الآثار: قوالبُ الخَبْز، مصافي العصير، الدُّمى المحشوّة، الصنادِل،

الحواسيب، كتابٌ عن حزب الكتائب، فَرْشات نوم، أُطُر أَسِرَّةٍ خشبيّة، منفضةٌ سجّاد، سجّادةٌ ملفوفة، أشياءُ كثيرةٌ جداً من بيوتٍ عادية. حتى الرجلُ الشائبُ الشعرِ الواقفُ بقربي من منظمة العفو الدولية ـ ولا بدّ أن يكون قد رأى الكثيرَ في حياته ـ أذهله حجمُ الدمار ووحشيّتُه لقد زالت أحياء بأكملها. الديموقراطية سهلة حقاً حين تدمِّر كُلَّ مَنْ لم يعجِبْكَ رأيُه!

المخلوقات الوحيدة التي ماتزال حيّةً هنا: قططٌ هزيلةٌ، وكلبان، ودجاجةٌ تَنْقر دُرّاقةً على الرصيف.

في البيت أستحمّ لأزيلَ عنّي تلك الصِّلّةَ التي طالما سعيتُ يائسةً إليها

مدفوع بهرمون التستوترون (هُرْمون الخصْية) يتسلّى قرب شواطئهم باصطياد المباني السكنيّة والجسور؟ قد يعتقد الأميركيون أنّ حياتهم ملْكُ أيديهم، لكنْ لا؛ حياتُهم نفسُها في قبضةِ محتكرين يَمْلكون البوارجَ الحربيةَ والأسلحةَ المتطوِّرة الأخرى ويُهْدونهم أرواحًا عربيةً على مذبحِ رفاهيّتهم. إنّ هذا هو تمامًا معنى الحرب لدى معظم الأميركيين كما أَفترض إنّه عدمُ السماح للعرب والإيرانيين والإثنيات غيرِ الأوروبية بامتلاك الصواريخ والرؤوس الحربية. ولذلك فسيتمّ اصطيادُنا من داخِل بيوتنا، وسنُسْحب بالشَّبكة من بين أثاثنا خدمةً لعناوين الجرائد الأميركية العريضة وهي تتحدّث عن نصرٍ ضدّ «الإرهاب،» فيما يُعطى القرّاءُ الأميركيون وَهْمَ أنّ حياتَهم «حرّةٌ» و«مستقلّة »

«تم تنظيم جولةٍ لنا إلى الضاحية سماح يعتقد أنّنا مجانين »

الاثنين ٢٠٠٦/٨/٧

بعد أنْ صَعُبَ عليّ الذهابُ إلى نادي Lifestyles، صار تمريني الرياضي الجديد هو أن أحملَ ثلاثةَ أكياسٍ من البقالة والمعلّبات في كلّ يد، فأَصْعد بها ستةَ طوابق وسطَ ظلام الدَّرَج الحالك المفضي إلى بيتنا أفكّر في أصدقائي في الولاياتِ المتحدة: هل يَمْلكون ولو أدنى فكرة عمّا يعنيه أن تتبدّلَ حياتُهم بسبب قاربٍ

حوالى السابعة مساء. على حين غرّة، قصفٌ رعدٍ تكنولوجي إنّها الشيّاح تُقصف قبلَ الأوان. أتراني قفزتُ لأنّني لم أتوقّعْ ذلك في هذه الساعة؟ انفجاران قريبان آخران، لكنّ التلفزيون يقول إنّهما في الشيّاح أيضًا. أطلب من البنتيْن أن تتمرّنا على آلتيْهما الموسيقيتين. تحتجّ سارية بأنّها لا تستطيع التركيزَ أَطْلب منها أن تَدَعَ الموسيقى تأخذها إلى مكانٍ مِنْ خَلْقِها هي، حيث يَعْجز الإسرائيليون عن تقرير سَيْرِ الأمور أقول لها إنّها

لو استطاعت أن تتعلّم التركيزَ على هذا النحو، فلن يهزَّها شيءٌ، وستصبح عازفةَ كمانٍ مدهشة؛ وحين يسألُها الناسُ كيف تعلّمت العزفَ فستجيبهم «كان ذلك أثناءَ حرب الإسرائيليين على لبنان. لقد تعلّمتُ كيف أتغلَّبُ عليهم بالموسيقى.»

في هذه الأثناء كان التلفزيون يُظْهر الأهالي وهم يتدافعون إلى أنقاض المباني السكنيّة الثلاثة في الشيّاح. يَصْدمني أنّه كلّما تقدّمت الحربُ ازداد تأثُّري بصور الموت والموتى بدلاً من أن يتراجع. وبسبب الوقت الذي قُصفتْ فيه الشيّاح، تمكّنتْ فرقُ التصوير من الوصول سريعًا وتبيان ردود فعل الناس لكنْ، في حُولا، قُتِلَ هذا الصباحَ أربعون شخصًا كما قيل، ولم يَصل أحدٌ إلى هناك للتأكُّد وفي البقاع، قُتل ٢٥ شخصًا فمتى تتضاعف أعدادُ الضحايا لتصبح هولوكوستًا تكفي فظاعتُها لَدْفع الأميركيين إلى إخراج رؤوسهم من الرمال، وإلى التغلُّب على الخوف من تهمة «العداء للساميّة،» فيُعْلمون إسرائيل أنّها وحشٌ لا يَعْرف حدودًا وأنّ أميركا ستتوقّف عن دعمها؟ غير أنّ الولايات المتحدة ترتكب الشيءَ نفسَه في العراق، لذا ستبدو مطالبةُ الإسرائيليين بعدم ارتكابه «عداءً للسامية» على الأرجح! ولكنْ لِمَ يَطْلب مجلسُ الأمن من العرب (وهم ساميّون) ألاّ يَفعلوا ما يَفْعله الآخرون؟

الأحد ٢٠٠٦/٨/١٣

هذا ما حدث السبت. فبعد كلِّ التخطيط والحماس لم ألتحقْ بالقافلة [١] كان سماح مغتاظًا جداً بسبب عدم التزام الناشطين بالشروط الأساسية لقيام القافلة في النهاية استسلمتُ لغضبه، ولكنّني استسلمتُ أيضًا لمخاوفِ سارية وناي. فأنا لم أحسّ بأنّه كان من العدل أن أُقلِقَهما طوال اليوم، خاصةً أنّني كنتُ أَعْلم أنّ إباهما سيغذّي أسوأ كوابيسهما بدلاً من أن يهدِّئ من رَوْعِهما. سامي وملاك شجّعاني، كلاهما، على عدم الذهاب.

حاولتُ أن أعوِّض عن جُبْني/ ضعفِ اقتناعي بأن كرّستُ كلَّ طاقتي لتنظيم لائحة بالمعلومات الصحيّة والسيّارات المشاركة في القافلة استغرقني ذلك الليلَ بطوله، امتدادًا حتى السابعة صباحًا. بلغتُ موقفَ السيارات في ساحة الشهداء بعيْد ذلك، وأنا أشعر بأنّني مطعوجةٌ ومتنكِّدةٌ وشبهَ عمياء. بعد دقائق كان الناس يتدفّقون إلى حيث كنتُ أجلس في سيارتي ليسألوني في أيّ سيارةٍ سيذهبون، مع أنّهم لم يكونوا قد أخبرونا بنيّتهم المشاركةَ، بل ولم يَحْضروا اجتماعًا تنظيميّاً واحدًا! كنتُ منزعجة جداً شرَحْتُ لهم أنْ ليس لدينا ما يكفي من السيارات لكلّ الناس الذين لم يسجِّلوا أسماءهم من قبل ولم يَحْضروا الاجتماعات ولم يملأوا الاستمارات الضروريةَ المتعلّقة بسلامة المشاركين أحدهم قال. «أنا موعود منذ الأسبوع الماضي بالذهاب » موعود؟ مَنْ وَعَدَك؟ هل نحن وكالةُ سياحة إكزوتيكية؟ التزلُّف والمماحكةُ أغاظاني كان سماح كلَّ بضع ثوانٍ يُرْسل رسائلَ خلويةً عن أماكن جديدة على خطّ سير القافلة قُصفتْ للتوّ ذلك الصباح. لم يبدُ أنّ أحدًا وافقني على أنّ الرحلة ستكون بالغةَ الخطورة وستحتاج إلى التروّي وإلى تنسيقٍ دقيقٍ في صفوف المتطوّعين والمنظّمين وبدا أنّ الشباب الذين كانوا يرتدون قمصانَ «تشي غيڤارا» وسراويلَ الجينز الضيّقة يعتقدون أنّ ما يفعلونه أمرٌ لذيذ، أو طريقةٌ لإظهار شجاعتهم، فلم يكلِّفوا أنفسَهم مجردَ الحضور إلى اجتماع التنسيق الليلةَ الماضية. كنتُ محبطةً (وتعبانة) إلى حدِّ أنّني غادرتُ السيارة وأعطيتُ أوراقي إلى پيرلا وقلتُ لها إنّ «ديني طلع » ابتسمتْ پيرلا مسايرةً، لكنّها أضافت أنّهم سيكونون سعداءَ بقبول مشاركين جددٍ في اللحظة الأخيرة. عجَبًا!

حين عدتُ إلى البيت في التاسعة صباحَ السبت كانت البنتان تلعبان لعبةً جديدة العسكر! كانتا تقفزان بين الكنبات، وتتسلّقان الرفوف، وتتجاوزان المخدّات المنتشرة على أرض الصالون، وتتشاتمان بأصواتٍ غليظة، وتأكلان مِنْ طبقٍ واحدٍ تحت الطاولة!

سماح، الذي مايزال مهتاجًا ويَشْتم قرارَ المشاركين في القافلة، مسمَّرٌ أمام التلفزيون الذي لم تُغطِّ محطّاتُه (إلاّ واحدةً) الحدثَ. حين أَفقتُ الساعة الواحدة ظهرًا من قيلولتي الخامسة أخبرني أنّ قوى الأمن الداخلي أَوقفت القافلةَ في منطقة الناعمة. كان أهدأ وأقلَّ لَدْغًا في مخاطبتي. كان سعيدًا، وبصراحة أحسست أنّ ذلك لم يكن من قبيل الشماتة بل تخلُّصًا من مشاعر قلقه.

الاثنين ٢٠٠٦/٨/١٤

مع وقف إطلاق النار لم أعد أعرفُ ما أفعلُ بنفسي. فقد اعتدتُ الحربَ؛ كان نظامًا نَزَلَ بي وامتلَكَ كياني، ومع رحيلها الآن أُحِسُّ بالفراغ التامّ بل أنا في الحقيقة مشتاقةٌ إلى القنابل الضخمة، إلى موعدي مع الاضطراب في معدتي، إلى تسابُقِ نبضاتي، إلى اندفاعِ الغضبِ في عروقي. لا أستطيع أن أصدِّق أنّنا بتنا قادرين على الخروج من البيت دون خوفٍ من القصف. لا أصدِّق. لستُ مقتنعةً أنّ هذا النصرَ كافٍ لإبعادِ الطائرات الإسرائيلية عنّا؛ أريد للحرب أن تستمرّ إلى حين تأكُّدي من ذلك الأمر. لا يرضيني وعدُ إسرائيل بالهجوم «في حالة الدفاع عن النفس فقط»؛ فالجيش الإسرائيلي أصلاً يسمّي نفسَه «قوات الدفاع الإسرائيلية» أيْ أنّه كلّما ضَرَبَ، فذلك من قبيل «الدفاع عن النفس»! هذا لا يعني أنّني أبحث عن الثأر للمدنيين القتلى وللدمار العظيم ـ فقد ثَأَرْنا نوعًا ما عَبْرَ الأذى الذي ألحقتْه المقاومةُ بالممتلكات الإسرائيلية والاقتصادِ الإسرائيلي والغرور الإسرائيلي لكنْ مازال علينا أن نَحْظى أيضًا باعتراف إسرائيل بأنّها بدأت الحربَ وواصلتْها لأسبابٍ غيرِ مقبولة

١ ـ كان ناشطون لبنانيون وعالميون قد نظّموا قافلةً مدنيةً للتوجُّه إلى النبطية وتحدّي الاحتلال الإسرائيلي وإعلان التضامن مع شعب الجنوب الصامد ومدّه بالمساعدات وموادّ الإغاثة راجع مقال سماح إدريس ومقال ملاك خالد في هذا العدد (الآداب)

بعد يوم من التنظيف اكتشفتُ أنّني أرمّم منزلي. فلقد استطعتُ أن أُخرج المزهريات واللوحات والسجّادات من مخابئها، وكذلك كلّ شيءٍ هشٍّ أو قابلٍ للاحتراق السريع. لقد غدت هذه الأشياء، على ما أودّ الآن أن أفكّر، أقلّ أهميةً بالنسبة إليّ، رغم رمزيّتها العاطفية. وهكذا نجونا من ٣٤ يومًا من الحرب الإسرائيلية واكتشفنا أنّ إسرائيل لا تستطيع هزيمتنا عسكريّاً. وما دمنا قادرين على تحمُّل الجسور المكسورة والبيوتِ المحطّمة، فستَعْجز إسرائيلُ عن فرضِ أيِّ شيءٍ علينا.

السماء فوق بيروت رمادية، ورطبةٌ، وربّما مليئةٌ بالسموم لكنّنا نتوهّجُ عزّةً لأنّنا مَنَعْنا إسرائيلَ من الدخول وتحقيقِ أيّ شيء ملموس (وأقصد أيّ شيءٍ ذي قيمة في حياة الإسرائيليين) سوى مقتلِ جنودها. لستُ متيقّنةً من أنّ الإحصائيات صحيحة، لكنّ حزب اللّه أعلن أنّه خَسِر ٦١ مقاتلاً، والحكومةَ اللبنانية أعلنتْ أنّ ١١٤٠ مدنيّاً (على الأقل) قُتلوا، والحكومةَ الإسرائيلية أعلنتْ أنّ ١١٦ جنديّاً قُتلوا إضافةً إلى بعض المدنيين. ولو صحّ ذلك فهو يعني أنّ نسبة المدنيين العرب إلى الإسرائيليين بقيتْ كما كانت في السابق. المدني الإسرائيلي يساوي ١٠٠ مدني عربي. غير أنّ نسبة **المقاتلين** العرب إلى **المقاتلين** الإسرائيليين قُلِبتْ رأسًا على عقب: فمقاتلٌ واحدٌ من حزب اللّه بات يساوي الآن جنديَيْن إسرائيليَيْن!

الثلاثاء ١٥/٨/٢٠٠٦

اجتماع آخر في «تاء مربوطة» بلال، الذي غادر صُور أخيرًا، يُخبرنا عن «فَرْشة ميركافا» تسدّ الطريقَ إلى الجنوب. نتناقش في ما ينبغي أن تفعلَه مجموعتُنا بعد اليوم. نَشْعر بالسعادة لصمود وقف إطلاق النار، لكنّنا مشوَّشون. يبدو أنّ الإجماع يتّجه إلى ضرورةِ أن نعمل الآن على مقاطعة الشركات الداعمة لإسرائيل. سماح يُثير المجموعةَ بفكرةٍ كان قد تداولها مع صديقه وليد: إقامةُ حفلات جازْ في بعلبك يعود ريعُها إلى أهالي بعلبك وإلى إعادة إعمار هذه المدينة العريقة المنكوبة اليوم... والمهمَلةِ منذ عقود. ثمة تساؤلاتٌ عن حقّنا في إقامة مهرجانات في القلعة لأنّ ذلك ـ كما يبدو ـ مقصورٌ على هيئةٍ معيّنة. أتدخّل: فلنسمِّها «Off Ba'lbak» («قرب بعلبك») كما مهرجانات Off Broadway في نيويورك، أو فلنذْهبْ جنوبًا إلى دير كيفا ولنَعملِ انطلاقًا من هناك لخدمة القرى المجاورة وفي كلِّ الأحوال سنغادر بيروتَ من جديد، ولكنْ هذه المرة في **اتجاه** المناطق التي ضربتْها إسرائيل لا **ابتعادًا** عنها.

أمي وأبي يتّصلان من كليفلاند. سارية وناي تَصْرخان فرحًا «لقد رَبِحْنا!» تقولان لهما.

بيروت

«بعد كل التخطيط والحماس لم ألتحق بالقافلة» (صورة للقافلة التي نظمتْها «حملة المقاومة المدنية» في ٧/١٢ إلى الجنوب)